الكاتب: دة/بحري نصيرة
جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم
البريد الالكتروني: sirra2626@gmail.com

عنوان المقال: **استقراء التاريخ من خلال رحلة ابن حمادوش الجزائري**

تاريخ الارسال: 2019/09/10 **تاريخ القبول:** 2019/09/22 **تاريخ النشر:** 2019/ 09/30

استقراء التاريخ من خلال رحلة ابن حمادوش الجزائري

الملخص بالعربية: يعدّ أدب الرّحلات من أكثر الأنواع الأدبيّة ثراءً، فهو يستقطب اهتمام دارسين من قطاعات مختلفة كالجغرافيا والأنتروبولويا وعلم الاجتماع، هذا فضلا عن التاريخ، هذا الأخير الذي يعتبر من أكثر الميادين اتّصالا بالرّحلات ، وكيف لا والرّحلات في حدّ ذاتها هي وجه من وجوهه ، ذلك أنّها تعكس تاريخ صاحبها والفترة التي عاشها ، ولهذا ارتأينا أن يتركّز اهتمامنا هاهنا على حضور التاريخ في الرّحلات بشكل عام وفي رحلة ابن حمادوش الجزائري على وجه التّحديد خاصّة إذا علمنا بأنّها رحلة تنتمي لفترة تاريخيّة هامّة من تاريخ الجزائر طالما أهملتها المصادر التاريخية نفسها، وقد عمدنا إلى التّعريف بالرحلة والرّحالة وبيّنا المنهج المعتمد في تدوينها هذا فضلا عن الحديث عن صلة التاريخ بالرّحلات وحضوره فيها.

كلمات مفتاحية: التاريخ- الرّحلات- الأدب- ابن حمادوش- الفترة العثمانية.

Abstract :

Travel literature is one of the richest literary genres, attracting the attention of researchers from different disciplines such as geography,sociology and history ;the latter is considered one of the disciplines closest to travel, especially since the travels themselves are part of its many aspects because they reflect the history of the author and the period he lived .

We therefore dicided to focus our attention her on the presence of history in the travels in general and in that of Ibn Hamadouch Al jazaïri in particular ; especialy if we learn that this is a journey that belongs to an important historical period of Algeria long ignored by the historical sources themselves.

We proceeded to define the traveler, we also highlighted the methodology adopted in its drafting, and talk about the relationship of history with travel and its presence in this genre of literature.

Key Words: History- travels- Literature-Ibn Hamadouch- Ottoman period.

تمهيد:

تعدّ الرّحلات بشكل عام، والرّحلات الجزائرية على وجه التّحديد مصدرا هامّا لعلماء من قطاعات متعدّدة كعلماء الإجتماع، والأنتروبولوجيا، والإثنوغرافيا، هذا فضلا عن علماء التّاريخ والجغرافيا، بيد أنّ حضور التّاريخ في أدب الرّحلات أصبح ظاهرة ينبغي الوقوف عندها، خاصّة إذا ما تعلّق الأمر برحلة عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، هذه الرّحلة التي تعكس جانبا تاريخيًّا هامًّا من تاريخ الجزائر في فترة طالما أهملتها مصادر التّاريخ نفسها ألا وهي الفترة العثمانية، فمن هو ابن حمادوش إذا؟ وما مضمون رحلته ؟ وما طبيعة العلاقة التي تجمع بين التاريخ وأدب الرّحلات؟ وما هي القضايا التاريخية التي استأثرت باهتمام الرّحالة فدوّنها في رحلته؟

كلّ هذه القضايا وغيرها سنشغل للإجابة عنها في هذه الورقة وإن لم يكن الجواب قطّ فصلا في الخطاب على حدّ تعبير عبد الملك مرتاض.

1- في التعريف بالرّحالة عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري:

عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري(1077هـ/1197هـ): ولد بمدينة الجزائر، من أهل القرن الثامن عشر للميلاد، لقّب والده بالدبّاغ لامتهانه الدّباغة، توفي وعمره حوالي تسعين سنة، بالمشرق على بعض الظّن سنة 1197هـ، لكن اشتهر ضريح له قرب مدينة سيدي بلعباس بقرية سميث بسيدي حمادوش، وقد قام برحلة إلى المغرب الأقصى سنة 1156هـ، له مؤلفات عديدة منها: مباحث الذكرى بشرح العقيدة الكبرى، كشف الرموز في بيان الأعشاب، الجوهر المكنون في الطب، رحلة سماها لسان المقال نشرت في الجزائر سنة 1983.[1]

2- في التّعريف بالرّحلة والمنهج المعتمد في تدوينها:

"لسان المقال في النّبإ عن النّسب والحسب والحال" هي رحلة جزائرية تحتوي على ثلاثمائة وست وستين صفحة من الحجم المتوسط، وعدد السطور في كل صفحة حوالي ثمانية وعشرين سطرا، طبعت بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالجزائر، سنة ثلاث وثمانين وتسع مائة وألف ميلادية، حقّقها الباحث أبو القاسم سعد الله وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه النسخة - التي اعتمدنا عليها- تخصّ الجزء الثاني من الرحلة فقط وهو الذي خصصه ابن حمادوش للحديث عن رحلته إلى المغرب أمّا بقية أجزاء الرحلة فلم يتوصل الباحثون إليها .

وقد أشار الباحث أبو القاسم سعد الله إلى أنّ "النسخة الوحيدة من المخطوطة موجودة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 463، وهي في شكل مسودة"[2] هذا عن الجانب الشكلي للرحلة، أمّا إذا تحدّثنا عن مضمونها وجدناه ثريًّا ومتنوعا إذ لم يقتصر حديثه عن المغرب وثقافته وعاداته وتقاليده وعلمائه بل إنّنا نجد في رحلته أخبارا هامة عن الجزائر في العهد العثماني وعن حياته وتنقلاته في المغرب والجزائر ومعاناته الشخصيــة هذا فضلا عن تضمينــه في هذه الرحلة للأشعار والمقامات والقصص والأمثال والأساطير وعقود الزواج والإجازات وبعض التراجم ونقول من بعض الكتب ككتاب الدول للمالطي وكتاب الكردبوسي وغيرها . هذه إذا بعض التفاصيل حول هذه الرحلة وبعضها الآخر سنفصل الحديث عنه في ثنايا هذه الدراسة.

ب- المنهـــج:

لقد اختلف الرحالون في تحديد أهدافهم من الرحلة فمنهم من كان هدفه علميا ومنهم من كان هدفه دينيا ومنهم من كان ترفيهيا، واختلفت بذلك مناهج تدوينهم لرحلاتهم ومن أهم هذه المناهج التدوين الزمني، التدوين المكاني، التدوين الموضوعي، التدوين الانتقائي، والتدوين الاستدعائي.

ولمّا كان "التدوين الزمني من أهم المناهج استخداما، وأكثرها تنوعا، وأضبطها وأوثقها"[3] فقد آثر ابن حمادوش هذا المنهج في كتابة رحلته وهو ما يمكن أن نستشّفه من قراءتنا للرحلة ولعلّ أهم ما يلاحظ في هذا النص الرحلي هو عناية ابن حمادوش الكبيرة بعنصر الزمن فهو لا يكتفي بتقسيم رحلته وفقا للسنوات والشهور والأيام بل أنّه يذكر حتّى الساعات في بعض الأحيان الأمر الذي يؤكّد دقة ابن حمادوش وواقعية الأحداث التي رواها فيها ومن النماذج التي

تؤكد اهتمام الرحالة بالزمن بكل تفاصيله قوله:" الجزء الثاني من رحلة لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال مبدؤه من أول ليلة الاثنين فاتح عام 1156 عربية الموافق رابع عشر فبراير ثاني شهور سنة 1743 مسيحية، وخامس شهور سنة، 1743 مسيحية"[4].

ولو تأمّلنا رحلة ابن حمادوش لأدركنا مراعاة صاحبها التّرتيب في سرد الأحداث فيقول مثلا :"وفي يوم الأربعاء أذن لي الشيخ البناني والوَرْزَزِي بأن أدرس المقنع... وفي يوم الخميس لقيت الشيخ الورززي.."[5] ، وهكذا يواصل ابن حمادوش عرض أحداث رحلته حيث ينقل المتلقي إلى عالمه يوما بيوم معتمدا على معاينته للوقائع أو سماعه للأخبار والأحداث، ممّا يشعر المتلقي بصدق الرواية.

والواقع أنّ رحلة ابن حمادوش لا تحتوي على منهج محدد - وإن كان الترتيب الزمني هو الغالب عليها- إذ نجده يزاوج فيها بين أكثر من منهج أي بين التدوين الزمني والتدوين الانتقائي الذي نلمسه من خلال إيراد ابن حمادوش لبعض القصص والحكايات والنصوص التي انتقاها من قراءاته لكتب الآخرين ككتاب الكردبوسي والمالطي وصحيح البخاري... وغيرها، هذا فضلا عن اعتماده في أكثر من موضع في الرحلة على الاستطراد الذي يثقل الرحلة ويؤثّر على منهجها وأسلوبها في آنٍ واحد، ولكنه يترك للقارئ مساحة للترويح عن نفسه، ولعلّ هذا ما كان يقصده ابن حمادوش من استخدامه لتقنية الاستطراد في سوق أخبار رحلته، فما إن يذكر موضوعا من الموضوعات حتى تراه يندفع وراءه يشبعه بحثا وملاحقة حتّى أعمق جذوره وأدّق متعلقاته، وهذا بلا شك بعض نتائج ثقافة رحالتنا الرّحبة ومعارفه الواسعة، ولذلك فهو يحرص دائما على إمداد القارئ بأكبر قدر من المعارف، ويكفيه في هذا المجال إشارة بسيطة حتّى يزل قلمه، ولا يكتفي إلاّ بورود منابع موضوعه، فلا يذكر ملوك آل عثمان مثلا حتّى تراه يفصّل الحديث عن تاريخ ولايتهم حسب تسلسلهم الكرونولوجي، وكذا في حديثه عن ولاة الجزائر.

ويرى الباحث أبو القاسم سعد الله "أنّ المحتوى العام للرحلة يمكن أن يقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، الأول قسم المغرب وهو في حوالي 75 صفحة، والثاني قسم نشاطه الشخصي في الجزائر وغيرها من قراءات وتدريس وعمل واتصالات وتأليف، أمّا القسم الثالث فهو يتناول النصوص والوثائق التي أوردها مثل قائمة ولاة الجزائر من أول دخول العثمانيين إلى زمنه وسلاطين آل عثمان إلى زمنه أيضا، ومثل نقوله الكثيرة من كتب ووثائق المتقدمين والمعاصرين

مثل الاكتفاء لابن الكردبوس، وكتاب تاريخ الدول للمالطي، وأنس الجليل للعليمي، بالإضافة إلى مجموعة من عقود الزواج على عادة أهل مدينة الجزائر، وكذلك مجموعة من الأسانيد والإجازات والقصص"[6].

ويبدو أنّ هذا التقسيم هو الذي جعل أبو القاسم سعد الله يحكم على ابن حمادوش بأنّه:" يكتب مسودة رحلة، وأنّ محتواها غير منسجم وغير متماسك، ذلك أنّه لا يكاد يربط بين أجزائها سوى الترتيب الزمني، وأنّه قد اتّبع في رحلته طريقة السنوات، أي أنّه كان يسجل ما رأى وما عاش وما وقع من أحداث خلال سنة ثم ينتقل إلى السنة الموالية وهكذا، وإذا أخذنا بالنّص الموجود عندنا فالرحلة لا تتجاوز خمس أو ست سنوات من عمر المؤلف، وهي لا ريب لا تعدّ شيئا بالنسبة لعمره الطويل الذي تجاوز بحسب بعض الآراء، تسعين سنة ..."[7] ونحن نتّفق معه في هذا الرأي لأنّ رحلة ابن حمادوش تفتقر إلى الوحدة العضوية ولعلّ مرد ذلك غنى الرحلة وتشعّب موضوعاتها، وعلى هذا يمكن أن نصل إلى نتيجة مفادها أنّ المنهج الذي سار عليه ابن حمادوش غير واضح وغير محدد، ولكن هذا لا ينفي القيمة العلمية والمعرفية التي تحتوي عليها.

3-أدب الرّحلة والتاريخ:

إنّ القارئ المتأمل في الرّحلات المغاربية ومؤلّفيها يجد أنّ غالبيتهم ينتمون إلى صنف المؤرّخين، فلا غرو إذن من أن تمتزج رحلاتهم بالتاريخ، فالتاريخ هو المعين الذي تمتح منه الرحلات مادتها وتثري به رصيدها، فبه تثبت مصداقية ما ورد فيها من أخبار، إنّها تتخّذ الشّواهد التّاريخية أمثلة حيّة توشّح بها متونها، فهذا ابن خلدون مثلا يكتب كتابا يسمه بـ:" ابن خلدون ورحلته غربا وشرقا" وهو مؤرّخ فضلا عن كونه رحّالة، وكذا الباحث الجزائري أبو القاسم سعد الله له مدوّنة ضخمة موسومة بتاريخ الجزائر الثقافي في عدّة أجزاء وله رحلة وسمها بـ "تجارب في الأدب والرحلة"، والورثيلاني الذي يكتب رحلة يسمها بـ"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" وغيرها من المدونات التي تحتوي على قرائن تؤكّد التواشج القائم بين الرّحلات والتاريخ .

ولمّا كان الأمر كذلك فلامناص للرحالة من الاستناد إلى التاريخ، والكتابة بالتاريخ، فمادام هؤلاء الرّحالين سالفي الذّكر ممّن ذكرناهم وغيرهم ممّن لم نذكرهم مؤرّخين فستدخل المادة

التاريخية مدوناتهم الرحلية عنوة حتى وإن أبو ذلك، لأن بصمة التاريخ ستظهر حتما في مدوناتهم، والمطلّع على الرحلات المغاربية سيدرك حتما هذه الحقيقة حتّى غدت بعض الرحلات مؤرّخة لأصحابها ولعصورهم، بل إنّ بعضها تضمّن معلومات أغفلتها الدراسات التّاريخية نفسها .

وتأكيدا على الأهميّة التاريخيّة لكتب الرّحلات تذكر الباحثة نوال عبد الرّحمن الشّوابكة قولا مفاده أنّ الرحلات "ذخائر تحفل بمادة ثريّة لا في مجال الجغرافيا أو التّاريخ وحسب، بل تلّم بالحضارة وتمثّل تجربة تعكس صورة الإنسان عبر العصور"[8] على حدّ تعبير الباحثة نوال عبد الرحمن الشوابكة، ولو تأملنا هذا القول لاستنتجنا غناء الرحلة بالمادة التاريخية وارتباطها الوثيق به ،هذا فضلا عن احتوائها على مواد أخرى كالجغرافيا وغيرها.

وهو الأمر ذاته الذي يؤكّده الباحث مصطفى محمود في قوله:" تعتبر كتب أدب الرحلات مصدرا للمعلومات التاريخية التي تحكي الأحداث التي عاصرها ذلك الرّحالة من تتابع السلاطين والحروب الدائرة أو الأحداث العظيمة التي وقعت في عصره ".[9]

والحقّ أنّ الرحلات تحتوي بداخلها وتنفتح على كم هائل من المعلومات وتتعرّض لجوانب مختلفة من الحياة وهو ما يوضّحه الباحث حسني محمود حسين في قوله:" إنّ نمط الرّحلات يتعرّض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد، إذ تتوفر فيه مادّة وفيرة ممّا يهمّ **المؤرّخ** والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير فالرّحلات منابع ثرّة لمختلف العلوم وهي بجموعها سجّل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مرّ العصور"[10] وفي هذا الكلام تأكيد على الطابع الموسوعي للرّحلة كما أنّ لفظة سجل المضافة إلى لفظة حقيقي تثبت علاقتها بالتّاريخ وتعكس واقعيتها ومصداقيها والتصاقها بالتاريخ.

وغير بعيد عن هذا الطرح توازن الباحثة نوال عبد الرّحمن شوابكة بين الرحلات والتّاريخ في قولها:"والرّحلات تكشف ما لا يكشفه التّاريخ، فالتّاريخ عامّ يشتمل على تصوير لحياة البلدان الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ونظم الحكم لشعب من الشعوب وهذا ما حقّقته الرّحلات غير أنّها أعطت كلّ ذلك بعده المناسب، وتطرّقت إلى تحليل جوانب لم تتطرّق إلى تحليلها الوثائق التّاريخية، فقامت الرّحلات بوضع كلّ ذلك في دائرة الإشعاع التي توجّه إليها

لاستجلاء الواقع وإخراج التّاريخ عن حدوده الضيّقة "[11] ويتبيّن من خلال هذا الكلام أنّ الرّحلات أشمل من التاريخ وأعمّ منه .

وإذا ما تأمل القارئ مفهوم التّاريخ فسيجد أنّه:" فنّ يبحث عن وقائع الزّمان من ناحية التّعيين والتّوقيت وموضوعه الإنسان والزمان، ومسائله أحواله المفصّلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة للإنسان"[12] حيث يتوسّط الإنسان قرينتي الزمن ومتغيّرات الحدث. وهي العوامل ذاتها التي تنهض عليها الكتابة في الرّحلات فهي تعتمد على الزمن وتهتّم به، بل أنّها تبالغ أحيانا في مسألة ضبطه، فنجد الرّحالة يذكر الساعة واليوم والشهر والتاريخ الذي وقعت فيه الحادثة كما أنّ الرّحلات أيضا تهتّم بالإنسان وما يطرأ له من أحوال وعوارض ، فهي تلتقي به في تحرّيها للأحداث وتوخّيها الصدق في نقلها واعتمادها على المدونات والوثائق ذات الصلة بالمواضيع التي تعرض لها، وبالتّالي فهما مشتركان في الخواص السّالفة الذّكر، بيد أنّ اتّفاقهما في هذه الأمور لا ينفي خصوصية كلّ منهما وتفرّده عن الآخر، فعلى الرغم من سريان البعد التاريخي في الرحلة واهتمامها بالأحداث وكرونولوجيا تطورها عبر الزمن، إلاّ أنّها تتفوّق عليه في شمولية أحداثها فالتّاريخ يهتّم بالأحداث التاريخية فقط كالغزوات والحروب والغارات والثورات في البلدان المختلفة وقيادها ونتائجها وأسبابها وما إلى ذلك، في حين أنّ الرّحالة يقتصر على ذكر الحوادث التاريخية التي عاصرها الرّحالة أو عايشتها الشخصيات المصاحبة له فقط، ولا يلاحق مجريات الأحداث الخارجة عن إطار رحلته، إلاّ ما ذكره على سبيل التّذكر والاسترجاع كما أنّ الرّحلة تتفوّق على التاريخ في كونها تضيف على ذلك كلّه موضوعات أخرى فضلا عن اهتمامها بالبعد التاريخي .

ويشير الباحث عبد الرحيم مؤدن إلى أنّ:" الرحلة جولة في الفضاء في الحاضر بينما التاريخ جولة في الزمن في الماضي . الرحلة وصف والتاريخ سرد"[13] وإن كنا نرى بأنّ الرّحلات لا تخلو من سرد ومن تقييد للزمن ومن هذا المنطلق فإنّه كلّما حاولنا تتبّع التّمايزات الموجودة بين الرّحلة والتّاريخ وجدنا خيطا رفيعا يصل بينهما ، وعلى الرغم من أنّ المؤرّخ يمتح مادته من الرّحلات، إلاّ أنّ الرّحالة يطبع تلك الأحداث بطابعه الخاص وهو ما عبّر عنه الباحث سعيد بن سعيد العلوي في قوله:" نعم قد تكون الرّحلة مادة جغرافية أو مصدرا في المعرفة التاريخية ولكن ذلك يظل جانبيا ومحدودا من وجه أول ويظلّ أسير انطباعات الرّحالة وتقديره ونزواته من وجه ثان"[14]

ويبدو أنّ حديث الرّحالة عن ذاته وشعوره في رحلاته كفيل بأن يجعلها تبتعد عن الصرامة العلمية والموضوعية التي نجدها ماثلة في التاريخ.

وممّا يؤكد صلة الرحلة بالتّاريخ ذلك المفتتح الذي استهل به أحمد بن هطال رحلته قائلا:" أمّا بعد فإنّ علم التّاريخ من أجلّ العلوم قدرا وأكملها محاسنا وفخرا"[15] وفي ذلك تصريح مباشر لارتباط الرحلة بالتاريخ وارتباط التاريخ بالحكي، بل إنّ "الرحلة ولدت في حضن التّاريخ والجغرافيا. وحينما صارت الرحلة قائمة بذاتها لم تنفصل عن مصدرها، وإنّما حوّلته إلى عنصر جوهري، حتّى أنّه يمكن اعتبار كلّ ما يكتب تاريخا بشكل ما"[16]. فلم تسلم الرّحلات من اللّجوء إلى التأريخ والاستشهاد بفقرات طويلة منه كما هو الحال في "سلوة الغريب وأسوة الأريب"[17] ورحلة التجاني وهو يستشهد بفقرات من تاريخ بن شداد والبكري[18]، أو يلجأ إلى رواية أحداث عاصرها بأسلوب المؤرّخ:"...وكتبت عنه في ذلك كتبا إلى سائر الجهات من كتاب يقول في بعض فصوله:"وإن صاحب صقلية لج في طغيانه فيه واستمر على عدوانه وبغيه وحمله سوء تقديره وفساد تدبيره على اهتضام جانب الاسلام"[19].

إنّ تأثير وحضور التّاريخ في الرّحلة أمر طبيعي، ذلك أنّ المادة التاريخية قد عرفت مناحي عدّة في التناول بين الطبري والمسعودي واهتمامهما بالسرد الإخباري المختلط بالأحلام والخرافات والتّفسيرات الغيبية للوقائع من جهة، وبين ابن خلدون ومن نحا نحوه والقواعد الدقيقة والمضبوطة لعلم التّاريخ من جهة ثانية، وهو ما أفاد السرد العربي والنص الرحلي خصوصا، حيث يصبح البناء النّصي في أخبار ومشاهدات الرحلة بصفة عامّة من أهّم المصادر التي يمكن أن يستفيد منها المؤرّخ والجغرافي والأديب والسياسي والإثنوغرافي وغيرهم، واعتبارها مرآة للحضارة ومصدرا معتمدا في الكشف عما عرفه العالم من حضارات قديمة مثلا هذه الرّحلات التي يهيمن عليها الجانب التّاريخي تحفل بمعطيات أخرى ممتزجة بالأخبار التّاريخية والخرافات والتّقاليد والأوعاء بكلّ أشكالها، وهو شيء حاضر في رحلات المؤرخين الإغريق القدامى، كما نجده عند الرّحالة العرب الأوائل .

وتتضمّن جلّ الرّحلات بنيات كاملة يؤرّخ فيها المرتحل للفترة التاريخية التي استغرقتها رحلته فضلا عن الأحداث التي عاصرها من منظور يعتمد على المعاينة والقراءة والتأويل والسماع.

فتتحوّل الرّحلات في بعض مقاطعها إلى تاريخ خاص، وحوليات يتّم فيها تبئير عين الرّحالة، المنطلقة من ذاته وأفكاره وتصوّراته واستيهاماته. فيتحوّل التاريخي إلى مشاهدات تلتقط ما يعزّز الرّحلة ويعطيها الطابع الذي يتوّخى السارد إيصاله إلى القارئ .

هكذا يستقيم البناء الواقعي في الرحلة بوجود المشاهدات وتكيّفها مع شروط التّحوّل ونوعية الرّحلة وانصهارها مع العناصر الأخرى المتداخلة انطلاقا من الخبر والحوليات وتتطور إلى الأنساب والتراجم والفلسفة والوثائق التاريخية والجغرافية والسجلات الاجتماعية.

وبهذا أصبحت الرحلة مصدرا هاما من مصادر التاريخ فهي على حدّ تعبير الباحث ناصر عبد الرزاق الموافي "والرّحلة وثيقة يمكن الرّكون إليها لأنّها :

- محدّدة الزّمان والمكان.

- واقعية ذات أهداف ونتائج.

- معروفة المؤلّف "[20]ولعلّ هذه السمات هي التي جعلتها أكثر واقعية ومصداقية واقترابا من التاريخ إنّها شهادة حيّة على العصر الذي عاشه المؤلّف وترجمة لأحداثه وإثبات لها.

4- حضور التاريخ في رحلة ابن حمادوش:

إنّ الباحث المتأمّل في رحلة ابن حمادوش يجد أنّ صاحبها قد ضمّنها معلومات هامّة عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني، خاصّة وأنّه عاصر عهد الباشوات الذين استبدوا بالحكم في الجزائر، وكان ما يزال طفلا عندما استعاد الجزائريون مدينة وهران من يد الإسبان ، ولكنّه كان واعيا لاحتلال اسبانيا لها من جديد ، وذكر في رحلته بعض الثّورات الداخلية مثل ثورة أهل زواوة[21] على قائد سباو وتحدّث عن توقيع الصّلح بين الجزائر والدّانمارك، كما سجّل فيها حادثة فرار ابن أحمد الرّيفي، ومحمد باي التونسي إلى الجزائر في وقت واحد واجتماعهما مع داي الجزائر عندئذ ابراهيم باشا، أمّا في المغرب فقد كان شاهد عيان على ثورة أحمد الريفي، حاكم إقليم تطوان على السلطان مولاي عبد الله وروى أحداثها بشيئ من التّفصيل والتّأثّر ووصف آثار هذه الثورة على الحياة المغربية سياسيا واقتصاديا.

والواقع أنّ ابن حمادوش قد عاصر تطوّرات اجتماعيّة وثقافيّة لا شكّ أنّها أثّرت على مجرى حياته، فحديثه عن عقود الزّواج في وقته، ومعاناته في البحث عن موارد للرّزق سواء في الجزائر، أو في المغرب واحتماؤه بالشّرف والعلم بدل الجاه والسياسة والمال، وكثرة تعرّضه للأسعار في أسواق الجزائر والمغرب، كلّها تعكس الجوّ الاجتماعي والاقتصادي الذي كان يعيشه .

والمطلّع على رحلة ابن حمادوش يجد فيها أخبارا هامّة تساعد الباحثين والمؤرّخين في معرفة أوضاع الجزائر السياسية والاجتماعية والثّقافية خلال القرن الثّامن عشر، ومن ذلك ما أورده من أنّ النّصارى(دون تحديد ولعلّه يقصد الإسبان) رفضوا قبول فدية المسلمين الذين كانوا أسرى عندهم، ولاسيما مشاهير الرياس مثل ابن الحاج موسى وقد أدّى هذا الموقف إلى غضب الباشا الذي قرّر غلق كنيستهم وهدد بهدمها إن لم يقبلوا بالصّلح ، ولم يخبر ابن حمادوش بما وقع بعد ذلك، واكتفى بالقول"وهانحن منتظرون ما يقع" ، وممّا رواه بشأن علاقة باشوات الجزائر بالسلطان العثماني أنّ الأخير قد أرسل مندوبا عنه إلى الجزائر، فلم يرحب به المسؤولون ولم يستقبلوه فبات ليلته في المرسى ثمّ دخل المدينة وحده ، ورغم أنّ الباشوات قد استبّدوا بالحكم فإنّهم ظلّوا يهادون السلطان ويسترضونه [22].

وغير خاف أنّ ابن حمادوش لم يغفل في رحلته هذه الحديث عن أخبار هؤلاء الباشوات فهم يرفعون الأعلام الخضر على الصّوامع عند تولية أحدهم ويحملون الميّت منهم إلى الجامع الكبير للصلاة عليه وقراءة القرآن .

والواقع أنّ ابن حمادوش لم يصبّ اهتمامه على الحوادث السياسية فحسب فهناك أيضا جوانب اجتماعية لا يمكن للمؤرّخ أن يتغافل عنها في رحلته، فحديثه عن صيغة صلوات وأدعية معهودة عند أهل الجزائر عند ختم صحيح البخاري وعن رش الخدم لماء الورد على الحاضرين بالجامع الكبير وتحدثّه عن عادات الجزائرريين والمغاربة ليلة القدر والمولد النبوي وفي هذا يقول:" وفي ذهابي له لقيت الطّبالين والعيّاطين وآلات الطّرب كلّها في السوق، ذاهبين بأربعة قباب من شمع، كلّ واحدة من لون، أحدها خضراء وأخرى بيضاء وأخرى حمراء، والرابعة نسيت لونها، أخف ممّا يجعل عندنا في الجزائر"[23] ومهما يكن من أمر فإنّ رحلة ابن

حمادوش تمثّل صفحة هامة من صفحات التاريخ الاجتماعي للجزائر والمغرب خلال القرن الثامن عشر .

ولئن كانت الأخبار السياسية والاجتماعية قد نالت الحظّ الأوفر في رحلة ابن حمادوش فإنّ ذلك لا يعني خلوّها من المعلومات الثقافية ولعلّ هذا ما يؤكّده الباحث أبو القاسم سعد الله في قوله:"وقد تكون أخبار ابن حمادوش الثّقافية أكثر أهميّة من أخباره السياسية والاجتماعية ، ومن حسن الحظّ أنّ المؤلّف قد أورد طائفة منها حول هذا الموضوع تعتبر نادرة في بابها لأنّه المصدر الوحيد الذي يكشف عنها"[24] .ولو تأمّل القارئ هذه الرّحلة لوجد فيها ذكرا لطائفة من علماء المغرب كمحمد بن عبد السلام البناني والورززي وأحمد السرايري وغيرهم كثير.

ويبدو أنّ غنى الرّحلات بالمعلومات التاريخيّة وإفادته منها جعل منها مصدرا هاما لمعرفة أحوال البلاد والعباد، ولعلّ هذا ما يؤكّده الباحث في قوله:" تعدّ كتب الرّحلات من المصادر الأوّليّة القيّمة لدراسة تاريخ البلدان لأنّها تمثّل رواية شاهد عيان ، ولاسيّما إذا كان صاحب الرّحلة متبحّرا دقيقا في وصفه، نزيها فيما يكتبه من أخبار ومعلومات عن الأماكن التي يزورها ويمرّ بها"[25].

وبعد فقد استطاع الرّحالة أنّ يقدّموا للأجيال صفحات من تاريخ البلدان التي كانوا يمرّون بها في سلمها وحربها، فحملت كتب الرّحلات في طيّاتها قدرا كبيرا من الأحداث، ممّا جعلها تدخل في عداد مصادر التّاريخ سواء في جانبه السياسي والاقتصادي أو الثّقافي والاجتماعي، وهي مادّة تفيد المؤرّخين والدّارسين وتفتح لهم بعض الآفاق التي قد لا تيسّرها لهم مصادر التّاريخ.

الهوامش:

---

(1) ينظر كواتي(مسعود): أعلام مدينة الجزائر ومتيجة ، دار الحضارة، الجزائر، ط1، 2007، ص14.وشاوش محمد بن رمضان:إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، ص109.

(2) ينظر سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط3، 1990، ص229.

(3) الموافي ناصر عبد الرزاق، الرحلة في الأدب العربي خلال القرن الرابع الهجري، ص63.

(4) ابن حمادوش عبد الرزاق، لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال، ص29.

(5) المصدر نفسه، ص35.

(6) ينظر سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص230.

(7) المرجع نفسه، ص231.

(8) الشّوابكة(نوال): أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المامون للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط1، 2008، ص18.

(9) محمود مصطفى: رحّال في أرض الله، دار المجدّد للنّشر والتّوزيع، المكتبة الوطنية الجزائرية،ص18.

(10) حسني محود حسين: أدب الرّحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت لبنان، ط2، 1983، ص06.

(11) الشوابكة(نوال): المرجع السابق، ص52.

(12) بن سليمان(فريد): مدخل إلى دراسة التاريخ، مركز النّشر الجامعي ، تونس، 2000، ص09.

(13) مؤدن عبد الرحيم: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ص32.

(14) بن سعيد العلوي سعيد: أوروبا في مرآة المرحلة، صورة الآخر في الرّحلة المغربية، المعاصرة، ص19.

(15) ابن هطال(أحمد): رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري، تح: محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 1969، ص53.

(16) حليفي(شعيب): الرّحلة في الأدب العربي التّجنّس آليات الكتابة، خطاب المتخيّل، رؤية للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 2006،ص96.

(17) ابن معصوم المدني: سلوة الغريب وأسوة الأريب، بيروت، عالم الكتب، مكتبة النّهضة،1988 ،ص65.

(18) التجاني(عبد الله): رحلة التجاني، ليبيا تونس، الدار العربية للكتاب، 1981، ص346-347.

(19) المرجع نفسه، ص337.

(20) الموافي ناصر عبد الرّزاق: الرّحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النّشر للجامعات، مصر، ط2، 1999، ص49.

(21) ينظر ابن حمادوش(عبد الرزاق): لسان المقال في النبإ عن النّسب والحسب والحال، ص 163.

(22) أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص233.

(23) ابن حمادوش: الرّحلة، ص84.

(24) أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص234.

(25) محمود(مصطفى): رحال في أرض الله، ص 16.